ماذا بعد الربيع العربي؟!!

هل سنشهد بعد الربيع العربي تحولاً في نظرة الآخر لنا؟ لاسيما وأن الربيع العربي قد أتى في جوهره كحركة احتجاج قوامها الرئيس هو الحرية، غير أنها تحمل في داخلها ما هو أكثر من العنوان، وما هو أبعد من العوامل الاقتصادية والسياسية المباشرة التي أفضت إليها، إنها تحمل رغبة في تغيير الذات لصورتها، وبناء صورة جديدة، وهي رغبة تحمل حالة من الرفض الكلي لصورة الذات، أو صورة الذات كما ترسخت في المرايا المختلفة، مثل مرآة الذات نفسها، ومرآة السلطة، ومرآة التاريخ، ومرآة الآخر .

بداية أقول أن العالم الغربي ينظر إلى بلداننا العربية بوصفها مكاناً أو فضاءً غيبياً، وذا صلة بالمتخيل أكثر مما هو مرتبط بشروط إنتاج واقعية، وبحركة تاريخ، وهنا لا بد أن نقول إن العرب أنفسهم أسهموا، وما زالوا، في التعاطي مع تاريخهم بوصفه معطىً نهائياً، وما زالت الدراسات النقدية تعاني من عدم القدرة على الخوض عميقاً في تشريح هذا التاريخ بوصفه تاريخاً، وليس قيمة لا يأتيها الباطل لا من أمام ولا من خلف .

لقد حاولت حركة الحداثة العربية خلال القرن الماضي أن تقدم رؤية مختلفة عن السائد في التاريخ والنقد والأدب والفن، أي أنها حاولت القول إنه بإمكان العرب تغيير مسار التاريخ الخاص بهم، وأن يكونوا منفتحين على العالم المتقدم بانجازاته، من دون انتقاص الذات التاريخية. لقد حاولوا أن يضعوا قطار الحياة والتاريخ العربيين على سكة الواقع، وإخراجه من الثبات والسكينة، ودفعه إلى الأمام، مشكلين اختراقاً ملموساً للصورة التي يتناولنا بها الآخر، في محاولة ملموسة لصناعة صورة الذات الخاصة بنا. لكنها ولأسباب عديدة لم يقيض لها أن تشكل الحامل الأساس للتغيير العربي بل ظلت تقبع في الظل، وتم تهميش كل من مفكروها وفنانوها وكتّابها، كما تمّ التعاطي معهم في أغلب الأحيان على كونهم نخبة مارقة، أو كإكسسوار مكمل للوحة الفنية التي لا تعني شيئاً في جوهرها.. ولذا فإنهم ضاعوا بين شرق يهمشهم وفي أكثر الأحيان لا يراهم وبين غرب يستثمرهم.

والسؤال الهام هل سيساهم الربيع العربي في رد الاعتبار للحداثيين العرب أم سيتجاوزهم ليحقق مكاسبه بعيداً عن ملاعبهم الثقافية والفكرية والفنية والسياسية والاقتصادية

والاجتماعية؟، ومتى سيقيض العرب خصوصاً وللشرق عموماً التحول إلى دائرة الفعل والتأثير، وتغير أشكال المعرفة، أدواتها، وإعادة النظر في الذات.

إن قطار الربيع العربي الذي انطلق في بعض دول المنطقة مطالباً بتحقيق الديمقراطية واحترام حقوق الإنسان والحرية والمشاركة وعدم الإقصاء سيؤثر بلا شك على السياسات الخارجية للدول العربية، خصوصاً بما يتعلق بطريقة تعاملها مع الكيان الصهيوني الغاصب حيث أن منطقة الشرق الأوسط لن تهدأ بعد الربيع العربي وستظل الشعوب في المنطقة تطالب وتناضل إلى آخر مدى من أجل حقوقها في فلسطين لاسيما مع استمرار سياسة إسرائيل في محاولات لتهويد القدس وضرب المواثيق الدولية عرض الحائط.

لقد قامت الإدارة الأمريكية بمد يد العون للحركات الإسلامية العربية وعلى الأخص جماعة الإخوان المسلمين في مصر وحركة النهضة في تونس مما يدفعنا للبحث والتحليل نظراً للمفارقات الحاصلة في إدارة المنطقة من جهة، وفي التعامل الدولي معها من جهة أخرى، وإشكالية سلوك الإدارة الأمريكية تجاه المنطقة العربية، والبحث في الخيارات التي من الممكن للولايات المتحدة أن تنتهجها مع منطقة الشرق الأوسط فيما بعد الربيع العربي، لا سيما وأن السياسة الأمريكية التي تعتمد على الحلفاء الإقليميين والمحليين لتأمين مصالحها الحيوية، سرعان ما تتخلى عنهم عندما يصبحوا عبئاً عليها سواء لأنهم فقدوا دورهم أو لأنهم يتعرضون لخطر الإسقاط.. كما حصل في أكثر من مكان في العالم!

إلا أنه ومن خلال التحولات السريعة التي أصابت معظم الدول العربية إثر الانتفاضات العربية المتلاحقة والتي لم تكن في كثير من جوانب تحت السيطرة السياسية الأمريكية التي رسمت لها مما أدى إلى توجيه ضربة صادمة للسياسة الأمريكية في المنطقة جعلها مندفعة للبحث عن اتجاهات مساعدة أو عن مدخل يمكن لها من خلاله التدخل بشكل أو بآخر للمحافظة على مصالحها الحيوية في المنطقة في مرحلة ما بعد الثورات والتحولات، لذلك فقد سارعت إلى المبادرة بتبني وترويج دعمها لأي تحول ديمقراطي، غير أنها لم تتمكن من السيطرة على مسار التحول بنسبة كبيرة في معظم هذه البلاد. وهذا ما يفسر السلوك السياسي الأمريكي في محاولته التفاهم مع الحركات الإسلامية ذات الشعبية في البلاد العربية، قبل أن تتخذ سياسات ربما تتسبب بضرر بليغ تجاه مصالحها على الرغم من

التباينات الأيديولوجية بينهما، إلا أنها أدركت أن التيارات الإسلامية بدأت تنتقل من التفكير كأحزاب معارضة إلى التفكير بالوصول إلى المراكز القيادية، وهو ما يجعل الطريق سالكاً من جهته لأية تفاهمات مع المجتمع الدولي.

وعلى الرغم من الاحتفالات الكثيرة التي أقيمت في أكثر من بلد عربي استطاع أن يسقط أنظمته إلا أن ناقوس الرعب والخوف مما هو آت بعد التغيير سواء على مستوى نظام الحكم أم التدهور الاقتصادي أم التلويح بنشوب الحروب الأهلية ومستقبل العلاقات بين الطوائف ومع الأقليات، ومما يبدو بأن المرأة العربية ومن خلال تصاعد المد الإسلامي السياسي ستكون أولى ضحايا التغيير العربي ومن ثم سيلحق بها الأقليات وربما تصاعدت أعمدة الدخان المنذرة بالحروب الطائفية والخوف من التقسيم بدأ يدب الرعب في القلوب فمعظم الدول العربية تواجه التقسيم بدءًا من العراق ومصر وليبيا واليمن إلى سورية وغيرها.

أين إسرائيل من كل هذا؟ وأين إيران؟ ما هي طموحات تركيا؟ ماذا يريد الغرب؟ وما هي أجندة الولايات المتحدة الخفية؟ هل روسيا متمسكة بالورقة السورية أو أنها جاهزة لرميها جانباً حالما تحصل على ما تريد في منطقة الخليج؟ وهل ستبقى دول الخليج بعيدة عن قطار التغيير الذي مر بالمنطقة العربية على الرغم من ظهور بوادر يقظة بين دول مجلس التعاون الخليجي الغنية بالموارد الطبيعية، النفط والغاز، والتي تملك قدرة الشراء والتأثير في الأسواق أدت إلى التماسك وازدياد الوعي والتنسيق، بضرورة إحداث الإصلاح بشكل اتحادي متكامل حيث وضعت لنفسها إستراتيجية خاصة تحصنها ضد العقائدية والأيديولوجية؟

ما هي السيناريوهات القادمة على سورية، لا سيما وأن الأمور اتخذت منحى مخيفاً ومرعباً من القتل والخراب والتفجيرات المتلاحقة التي حولت حياة المدنيين الأبرياء إلى جحيم؟!!

مَن هو القائم على تغيير النظام الإقليمي الجديد؟ أهو الشعب الذي انتفض؟ أم هي الدول الكبرى التي رسمت خريطة النظام الإقليمي الجديد ووجدت لنفسها شركاء محليين، منهم دول إقليمية ومنهم قنوات فضائية إخبارية؟

لا بأس بإطاحة أنظمة لم يكن وجودها في صالح الشعوب، إنما ما هو البديل؟!! هل هو الإسلام المعتدل كما يروج الغرب والإدارة الأمريكية إلا أن هذا "الاعتدال" على ما يبدو مجرد مطية للوصول إلى سدة الحكم فهؤلاء الزعماء الإسلاميين الذين يدعون الاعتدال حالياً كانت لهم بيانات متطرفة في الماضي. ويكمن التهديد الأكبر للديمقراطية وحرية التعبير لن تكون في الإسلام السياسي وإنما ستكون في خلق حالة اللامبالاة السياسية التي سيحاول الإسلاميون زرعها في نفوس المواطنين وهكذا ربما ما سيأتي سيكون الأسوأ.

وإذا أردنا أن ننظر للأمور بنظرة أكثر تفاؤلا وتوازناً لقدرات ولنوايا الأحزاب الإسلامية فيما بعد الربيع العربي فيمكننا القول أن الإسلاميين قد يضطروا لدى وصولهم إلى سدة الحكم إلى تغليب الواقع على الدين خاصة فيما يتعلق بالقضايا الاقتصادية. وقد تكون العلاقات بين الولايات المتحدة الأمريكية وبين الإسلاميين علاقات مضطربة وقد تؤول إلى الانفصال . كما يمكننا القول أن الشباب العربي عليه أن يواصل دوره البارز الذي مارسه في تحدى نظام حكم الفرد الواحد وذلك من خلال فرض ضغوطه على الأحزاب الإسلامية وأن يطالب بكل ما لديه من أدوات وقدرات بضمانات تكفل عدم احتكار السلطة باسم العملية الانتخابية وبضمانات تحييد الدساتير عبر الإصرار أن تكون مدنية.

ومن ثم علينا التساؤل هل يستطيع أي شعب عاش عقوداً طويلة من الدكتاتورية والقمع السياسي أن يبادر إلى انتخاب الأفضل؟ أليست الانتخابات تحتاج لمناخ سياسي سليم بعيداً عن المال السياسي والفرز الطائفي والديني والعرقي؟